جرازيلا

للشاعر الفرنسي الفونس دي لامرتين

جرازيلا فتاة ايطالية من سكان نابولي كان أهلها صيادي سمك فقطن في منزلهم الفونس دي لامرتين في اثناء سياحته في البلاد الايطالية، وكان وقتئذ في الثامنة عشرة من عمره فأحبته الفتاة حباً تملك كل مشاعرها وتسلل الى سويداء قلبها. لكنه سلاها عندما غادر ايطاليا عائداً الى موطنه تلبية لنداء أمه. فماتت تلك العاشقة حزناً وكمداً بعد شهور من فراقه. حتى اذا كانت سنة ١٨٣٠ اي بعد الحادثة باثنتين وعشرين سنة تذكرها وهو في احدى كنائس باريس يحضر جنازة فتاة تماثلها سناً. فبكى بكاء مراً. وتمثل له غدره وخيانته لتلك التي قتلها صده وبعاده. فيمم صوب ايطاليا وزار نابولي باحثاً عن قبر تلك التي ذهبت ضحية على مذبح انانيته حتى تعثر عليه في مكان موحش جثا على أديمه وبلل ثراه بعبرته مستغفراً عما جناه. ونظم هذه المرثية التي هي بلسم للجرح وندى للقلب وعطر الزهور التي تنبت على رمس الحبيب

على شاطئ البحر الخضم، الذي ترتسم على صفحاته مباني سورانت[1]، حيث الامواج الزرق تنبسط تحت اقدام شجر البرتقال، قبالة سياج الاجمة العطر، اقيم نصب صغير، لا رواء له ولا بهاء، قد غطته الاعشاب، ووارته الزهور، فاختفى تحت اوراقها اسم الراقدة الذي لم يفكر فيه احد، ولم يردده صدى

فاذا ما مرّ عابر سبيل، واسترقته عاطفة رأفة وحنان، فأزاح بيده النباتات، مستطلعاً طلع ساكنة الرمس، استعبرت عيناه، وفاضت مدامعه، فكفكف عبراته، وعاود سيره آسفاً حزيناً، وهو يتمتم: ستة عشر ربيعاً! لم تستمتع بها! لقد ماتت قبل اوانها

اجل! ستة عشر ربيعاً غير كاملة، عمر قصير الامد، لكنه لم يسطع البتة على جبهة اجمل من هذه وابدع، ولم ينعكس بهاء هذا الشاطئ المحرق، في عين اشد صبابة ولا اكثر هياماً، اني اراها وحدي، كما تركتها الذكرى حية في النفس، حيث يبقى الشيء دون ان تنال منه يد الموت، اراها حية كما كانت في تلك الساعة، والفلك يسري بنا على متن الامواج،

---

(١) مدينة في ايطاليا على خليج نابولي

وقد علق نظرها بنظري ، فتكلمت عيناها ، وصمتت شفتاها ، مخافة ان يقطع الكلام لذيذ هنائتنا وشعرها الاسود الفاحم ، مستسلم الى الهواء يحله ويداعبه ، وظل الشراع يلقيه على خدها الجوري[1] ، وهي تستنشق عبير النسيم العليل ، فأشارت ببنانها الوردي الى القمر المتلألئ ، ثم الى زبد الماء الفضي ، وصاحت بتدلل : « لماذا كل شيء يسطع في الفضاء وفي نفسي ؟ فهذا الحقل السماوي ، ذو اللون الازرق السنجوني ، المرصع شهباً منيرة ، وهذا الرمل الذهبي حيث تتكسر الامواج ، وهذه الجبال التي ترتعد قنتها في اقصى الفضاء ، وهذه الخلجان المتوجة بالغابات الهادئة الساكنة ، وهذه الاضواء على الساحل ، والاغاني على الامواج لم تهيج قط حواسي ، وتملأها لذة مبهمة ، وحبوراً خفياً ، مثلما فعلته الآن

« لماذا لم يذهب بي التأمل فيما مضى مذهبه الآن ؟ فهل أعترى حياتي حدث رق من شعوري ، ولطف من احساسي ؟ وهل بزغ في فؤادي كوكب ، مثل ذلك البازغ في السماء ؟ »

***

وكانت عينها صافية نقية ، وشفتها طاهرة عفة ، وجنتاها لم يكونا ليحولا بين نظرها المملوء عفافاً وقدساً ، وكانت السماء تغمر نفسها بالضياء ، وروحها اشبه بتلك البحيرة التي لا تجعد سطحها نسمة ، غير نسمة الشفوف والنقاء ، وجبينها البديع لم يصل اليه الهم ليمسه بميسمه ، فكل شيء فيها يطفح مرحاً ، وهذا الابتسام الباقي ، الذي مات بعدئذ بحزن على فمها ، كان دائماً طافياً على شفتيها المنفرجتين كأنه قوس قزح نقي ، في يوم بهي ذي سناء ، وذلك الوجه الفتان لم يستره ظل ، ولم يحجبه حزن ، لأن هذا الشعاع لم ينفذ بعد خلال الغمام

وكان صوتها الذي يحاكي رنين اكواب الفضة ، صدى نقياً صافياً لنفسها الطفلة ، وموسيقى لتلك الروح ، تنشد على قيثارتها اغاني العواطف ، فتسبي العقول ، وتأسر الافئدة وتهيج حتى الهواء الذي تسعد على جناحيه

لقد كانت صورتي هي الاولى التي حفرت في قلبها ، فتقبلتها كما تتقبل العين اول شعاع من ضوء النهار ، فتغدو لا ترى غير ذلك النور الذي فاض عليها ، فملأها من سنائه وضيائه ، فمنذ ما احبتني ، اصبح العالم كله لها حباً وصبابة ، فامتزجت بي ، وامتزجت بها ، فنبذت الماضي ، واشاحت بوجهها عن المستقبل ، ولم تعد تهتم إلا بالساعة التي هي فيها ، فتلاق من تلاقينا الليلي هو كل متى نفسها ، بل هو حياتها وروحها وريحانها ، فكانت تستسلم الى الطبيعة الهادئة ، فتبتسم لها هذه ، عند ما تقوم بصلاتها الحارة الورعة ، فتتصعد صوب الهيكل المقدس ، حاملة بيد ازاهير التقدمة ، وقابضة بالاخرى على يدي ، فأسير معها طائعاً كطفل ، حتى اقف في أسفل الدرج ، فتسر الي بصوتها الملائكي : « صل معي : لترتفع

(١) نسبة الى الورد الجوري

تتسامى الى السماء ، لاني لا أستطيع الى جنة الخلد ، ولا « اعتاها ، اذا كانت خشوعاً منك »

***

غاب شخصي فرتمد كل شيء في اعماق تلك النفس ، وانطفأت تلك الشعلة متصعدة طيبها المائت الى السماء ، وتمعن فيها دون ان يرتجى له عودة ، ذهبت تلك الحبيبة ولم تحضن فؤادها بالتعلة والأمل ، ذهبت ولم تنازع الآلام حياتها ، بل شربت كأس المرارة والاحزان نهلة واحدة ، فغرقت قلبها في اول دمعة ذرفتها عينها ، فكانت ذلك الطائر الذي اذا جن ليله ، لوى عنقه تحت جناحه ونام ، فالتحفت باليأس الصامت ونامت هي ايضاً نومها الابدي ، ولكن قبل ان يزرّ غسق حياتها ، وتبدو طلائع ليلها

نامت خمس عشرة سنة في مرقدها الصلصالي ، ولا احد يبلّ بدموعه ثرى ملحدها الأخير ، فالنسيان السريع الذي هو كفن الميت الثاني ، قد غطّى الممر المؤدي الى تلك الحفرة ، فليس من يزور ذلك الحجر الذي تحت تفرشه يد الزمن ، لا احد يفكر بها ويصلي لاجلها ، غير ذهني الذي علقت به كل ذكريات الماضي ، فاذا ماصعدت على امواج ايامي السالفة ، وسألت نفسي عن الذين رحلوا من هذه الفانية ، وطفقت عيناي على آثارهم العزيزة ، وبكيت في سماء حياتي ، على نجوم عديدة غارت وخبا ضياؤها ، كانت تلك الحبيبة اول الكواكب التي اندب خسوفها ، مع ان ضوءها الهادىء اللطيف ، لم يزل ينير قلبي بنور التقوى والخشوع

***

نسيها الناس طرّاً ، لكن الطبيعة لم تنسها ، فقد حلت قبرها بشجيرة شائكة صفراء الورق ، يابسة العروق ، امتصت عصارتها رياح البحار ، واوقفت نموها حرارة الشمس فدبت على الصخر دبيباً ، دون أن ترفع رأسها ، فأشبهت تلك الحسرة المميتة ، التي تتسلل الى القلب وتتأصل فيه ، ولا تزال تتغلغل في صميمه حتى تأتي عليه

فاذا ما اقبل الربيع ، وتبسمت الطبيعة ، نبتت على ذلك القبر زهرة بيضاء ، كأنها الثلج في نقائها ونصوعها ، فتحاصرها الريح ، وتضيق عليها من كل جانب ، ولا يدور الفلك دورة او دورتين ، حتى تنتثر اوراقها ، قبل ان يتعطر أريجها الفضاء

فما اشبه هذه الزهرة بساكنة الرمس ، التي هصر غصنها الغض ، قبل ان تبتهج الحياة فؤادها ، وتسرها بنيل المنى وإدراك الأماني . . . ألا بالله خبريني أيتها الزهرة الذابلة ، هل لا يوجد مكان غير دنيانا ، تزدهر فيه الاشياء ازدهاراً ، لا يصيبه ذبول ، ولا يعتريه أفول ؟؟؟

القاهرة جورج نيقولاوس